

وكان منهم العناد. واستمع قول الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل: ١٤) وقوله تعالى ﴿ فَأَيُّهَا لَّا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ تَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣).

وكما نرى تشابه بين موقف كفار قريش وما كان من عصيان إبليس، نراه مع أكثر من نبي آذاه كفار قومه. وتقرأ قول الله تعالى عن نوح وقومه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أصْبَعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح: ٥ - ٧).

فمشاهد قصة آدم قديمة متجددة. وروايتها أكثر من مرة، بأكثر من زاوية، تدلنا على استمرارها في تاريخ الإنسانية، مع تنوع صورها ووجوب الحذر من مداخل الشيطان إلى النفس، ومن تبعه من شياطين الإنس.

### ٣٣- تحليل لخطأ آدم

لم ترد الإشارة إلى خطأ آدم صراحة في سورة الكهف، وإن جاءت في مواقع أخرى من القرآن كسورة البقرة والأعراف وطه..

ونقف هنا عند مقارنة بين خطأ وخطأ.. خطأ إبليس وأركانها، وقد سبق أن ذكرناها وهي أربعة: العصيان، والاستكبار، والتبرير الفكري، والإصرار على الخطأ.

ولم يكن الأمر من آدم كذلك..

لقد شهد الحوار ورأى نتيجته، وكان عليه أن يأخذ من هذا الموقف الدرس الذي ينفعه في المرحلة التالية من حياته، وهي مرحلة السكنى في الجنة، بعد مرحلة الخلق والتعليم وفيها شهد عصيان إبليس ونتيجته المريرة، وتحددت به عداوته لأدم وأولاده..

وفى الجنة أكرم الله آدم بحياة الأسرة والاستقرار كفل له المسكن والملبس والطعام والشراب.. وهذه الستة هى أساس الحياة الإنسانية. ونقرؤها في قوله تعالى:

﴿ وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (البقرة: ٣٥)، وقوله تعالى:  
﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ (طه: ١١٨: ١١٩)

يقول الإمام ابن كثير مفسراً الجمع بين هذه الأربع في ثنائيتين: إن الجوع هو ذل الباطن، والعرى هو ذل الظاهر. وأن الظمأ هو حر الباطن، وأن الضحى (أي البروز للشمس) هو حر الظاهر ا.هـ. فهذه أربعة نجمع إليها الاستقرار والأسرة فتكون الأركان الستة لحياة الإنسان، بعد أن أكرمه الله بنعمة الوجود والعلم والإرادة.

ولقد امتازت هذه المرحلة بحرية الاختيار، ووجود البدائل أمامه يختار منها ما يشاء. وامتازت بالحدود. فهناك مدى لا يصح أن يتخطاه:

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٣٥) فهذه جنة بكل ما فيها من ثمر وظل وماء وستر.. ماذا لو عاش فيها هو وزوجه سعيدا؟ ولينس أمر هذه الشجرة.. الشجرة الواحدة في الجنة الممتدة..

ولكن من أين جاءت الغواية؟

جاءت من الطموح والرغبة في أن يكون فوق ما أراد الله له أن يكون. لقد أكرمه الله بالعلم الذى لم يعطه لملائكته. ورأى في الملائكة حياة ليس فيها موت..

من هذا المدخل يمكن أن يأتى الشر. ووسوس له إبليس..

﴿ مَا نَهَيْكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٠-٢١).

أيستطيع آدم أن يضم إلى العلم الخلود، فيكون فوق الملائكة علمًا، ويستوى معهم خلودًا؟ وهذا القسم.. هل يقسم إبليس كذبًا؟ لقد أقسم من قبل في موقف أشد فقال:

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴾  
(ص: ٨٢-٨٣).

نعم. إن الأمر غواية. ولكن القسم في ذاته صدق. لقد أقسم بعزة الله.. فهل يجرؤ إبليس على القسم الكاذب؟

كان من إبليس إلحاح. وكان منه تبرير وإغراء ودأب على الغواية.. ولقد كان هذا لآدم وزوجه. وتبين آيات سورة الأعراف أن الخطاب والحوار كان معهما وليس مع حواء وحدها وبهذا النص القرآني تبدو المسئولية مشتركة بين آدم وزوجه ويقول الله تعالى بعد هذا: ﴿ فَدَلَّيْنَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰهُمَا وَطَفِقَا مَخَصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف: ٢٢).

الغرور الذي ظن آدم وزوجه أنه يرفعهما إلى المكان الأعلى، هبط بهما إلى الأدنى... حتى ستر الملبس نزع عنهما، وامتدت أيديهما إلى ورق الجنة يستتران من أمرهما ما كشفته المعصية. واللباس ستروطاعة الله ستر.. وصدق الله:

﴿ يَبْنِيْٓءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۗ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (الأعراف: ٢٦).

ونتأمل قول الله تعالى:

﴿ وَطَفِقَا مَخَصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ وما تفيد من استمرار الخصف وموالاته.. هل كانت الأوراق تتطاير، كما تطايرت آمالهما في الجمع بين العلم والخلود، ومساواة الملائكة في أمر، والتفوق عليهم في أمر آخر؟..

لو نظرنا إلى أسلوب الإغراء الذي اتبعه إبليس لوجدنا فيه الأركان الأربعة للمعصية.

- أولاً - توجيه الذهن إليها. وذلك قول الله تعالى في القصة حاكيا عن إبليس. هل أدلك؟
- ثانياً - وثالثا التأثير النفسى والعقلى في قوله ((على شجرة الخلد وملك لايبلى؟))
- ثالثاً - الإصرار والمتابعة في قوله: ((فوسوس)) وقوله: ((وقاسمهما)) فالمكيدة محكمة الأركان..

وواضح - من أول الأمر - الفروق بين ما كان من إبليس وما كان من آدم. إبليس بدأ من ذاته. هو الذى اختار المعصية، دون وسوسة ولا إغراء. ونفسه هى التى طغت، وتفكيره هو الذى فضل النار على الطين. وهو الذى أصر على موقفه حين سأله ربه عن سبب الموقف ثم تابع العناد..

ولم يكن من آدم وزوجه شئ من هذا.

ما فكر ابتداء في أمر شجرة الخلد، وما قبل الإغراء لأول مرة وبكل سهولة.. وإنما كان من إبليس الوسوسة والقسم والإلحاح.. وتوزعت نفس آدم بين الطاعة وبين التطلع إلى الخلود وملك لايبلى.. وانهارت حصون المقاومة في نفسه واحدا بعد واحد.. وغلب الطموح الطاعة، وتخطى آدم حدود الله وهو يعرف ما يفعل. وفى لحظة وجد ثيابه تتطاير، وأحس أنه لا يملك حتى الستر.. وكانت منه توبة سريعة وعودة إلى الله.

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(الأعراف: ٢٣).

ونحس في هذه الآية الكريمة ونظائرها صدق التوبة وحرارتها والجانب النفسى والعقلى فيها،. وتأمل تتابع الظلال والأضواء التى تتركها في النفس كلمات ((ربنا)) بما فيها من التضرع.. أنت ربنا وخالقنا. و((ظلمنا أنفسنا)) بما فيها من إقرار بالذنب، وأنه ظلم. والظلم ظلمات. ثم طلب الرحمة والمغفرة، وفى غير طريقها الخسران. والرحمة فيض من الله، والمغفرة ستر. فالمغفر هو الذى يستر الفارس ويحميه. والغفران ستر الذنوب.. فاسترنا يا رب بسترك الجميل وارحمنا برحمتك الواسعة..

آماد واسعة بين هذا الموقف بعد المعصية، مهما تكن دوافعها ومبرراتها النفسية والعقلية، وبين ما كان من إبليس من عناد واستكبار وإصرار، ورأى آدم في نفسه، وبنفسه، ثمار الطاعة والمعصية..

كانت منه طاعة سابقة، عندما علمه الله فتعلم، واستودعه الأسماء فحفظها ووعاها، وأمره أن ينبئ الملائكة بالأسماء فكانت منه الطاعة والإنباء.. ورأى ثمرة طيبة وتكريماً أن أسجد الله له الملائكة.. هذا هو الدرس الأول والنجاح الأول لآدم..

وجاء الدرس الثاني، وفيه تخطى الحدود فكان ما كان تغيره من سرعة الإحساس بالخطأ والتوبة..

وتقبل الله الغفور الرحيم توبة آدم وزجه وغفرها وسجل الله قبول التوبة في كتابه:

في سورة طه: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾.

وفي سورة البقرة: ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۗ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ (البقرة: ٣٧).

وعند هاتين الآيتين ينبغي أن يقف كل إنسان: كأنه من آدم موقف أخطأ فيه، وسارع إلى التوبة، وقبل الله التوبة.. وبعد التوبة اجتباء وهداية وكلمات من الله..

وبعد الدرسين الأول والثاني، في مرحلتى الخلق الأول والحياة في الجنة.. تهيأ آدم لمهمة جديدة، هي الخلافة في الأرض وبها تبدأ المرحلة الثالثة من حياته..

ومسئولياتها أوسع.. كما كانت مسئوليات المرحلة الثانية أوسع من الأولى..

قل: إنه تدرج في التربية والتكوين، وإعداد للمهمة العظمى: أن يكون خليفة في الأرض للخالق جل وعلا..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠) خليفة هو وذريته، يقول الله تعالى:

﴿ اَمِّنْ تُحِبُّ الْمَضْطَّرَّ اِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوْءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاۗءَ الْاَرْضِ ۗ اٰلِهَةٌ مَّعَ اللّٰهِ قَلِيْلًا مَّا تَذَكَّرُوْنَ ﴾ (النمل: ٦٢).

والخلافة كرامة وليست عقوبة. وتوسيع لدائرة المسؤولية لا ضيقا ولا سجنًا.. سبقها إعداد، وبعدها جزاء.. وما عند الله خير للأبرار.

### ٣٤- ويجعلكم خلفاء الأرض

يقول الله تعالى على لسان نبيه صالح عليه السلام مخاطبا قومه ثمود:

﴿ وَاِلٰى ثَمُوْدَ اٰخَاهُمْ صٰلِحًا ۚ قَالَ يٰقَوْمِ اَعْبُدُوْا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُ ۗ هُوَ اَنْشَاَكُمْ مِّنَ الْاَرْضِ وَاَسْتَعْمَرَكُمْ فِيْهَا فَاَسْتَغْفِرُوْهُ ثُمَّ تُوْبُوْا اِلَيْهِ ۚ اِنَّ رَبِّىْ قَرِيْبٌ مُّجِيْبٌ ﴾ (هود: ٦١).

ونقف عند كلمة ﴿ وَاَسْتَغْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ وهي من المهام الكبرى لاستخلاف الله آدم في الأرض..

وفى هذا الاستخلاف تتعدد الاتجاهات بين مؤمن وكافر، وقائم بالأمر وقاعد عن المسؤولية.. وبين هذين تدافع صورة الله تعالى في قوله:

﴿ وَلَوْ لَا دَفَعَ اللّٰهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْاَرْضُ ۗ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ ذُو فَضْلٍ عَلٰى الْعٰلَمِيْنَ ﴾ (البقرة: ٢٥١).

ووراء هذا كله ذلك الصراع القديم بين الاستقامة والغواية، كما تمثلها المرحلة الثانية من قصة آدم، وتحذير الله لنا جميعا في قوله عن إبليس في سورة الكهف:

﴿ اَفْتَتَّخِذُوْنَهُ وَاٰلِهٖٓتُهُ اَوْلِيَاۗءَ مِّنْ دُوْنِىْ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۗ بئْسَ لِلظّٰلِمِيْنَ بَدَلًا ﴾ (الكهف: ٥٠).

وما الولاية هنا؟

إنها الطاعة والانقياد.. طاعة الهوى والشهوة وعبادة المال والمنصب والجاه، والرغبة في البقاء والخلود، بغير طريق الطاعة.

وما عمران الحياة؟.. إنه ارتفاع بموادها الهامدة، وبالناس فيها، إلى مستويات التعاديه والإبداع وصيانة الحق والدفاع عنه..

والحياة في تقدمها، ارتفاع مستمر.. ولنتأمل قول الله تعالى:

﴿ يَرْقِعَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة: ١١)

وقوله تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩).

ومع التقدم والارتفاع.. مع الطريق المستقيم الصاعد، تحس النفوس الطيبة بالافتقار الدائم إلى الله، والرغبة الدائمة في أن تسجد لله شاكرة.. والسجود في غايته مزيد من الإبداع والعمل والتواضع..

ثم يبين لنا الله تعالى مستوى المضلين فيقول:

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذَ

الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (الكهف: ٥٠).

ولا زالت هذه أسراراً مطوية يحاول الإنسان طرق أبوابها فلا يملك إلا الاجتهاد، وإلا ما أخبره به الحق تعالى:

كيف خلق الله السماوات والأرض؟

كيف بدأت الحياة بعامة؟

وكيف بدأت الحياة الإنسانية بخاصة؟

أنت أيها الإنسان - كائننا من كنت - لم تشهد خلق السماوات والأرض ولا

خلق نفسك..

وتتكشف كل يوم أبعاد جديدة للحياة الكونية، وللحياة الإنسانية، ويتضح أمامنا أننا نعيش على شظية ضئيلة اسمها (الأرض) في المجموعة الشمسية، وهي إحدى المجموعات في مجرتنا ذاتها واسمها درب التبانة، وهي ليست سوى واحدة من عدد كبير من المجرات الأخرى التي تعد بالملايين..

وكل ما قاله العلماء عن (كيفية) خلق الإنسان لا يعدو أن يكون اجتهادات.. وكتاب الإنسانية - بالنسبة للإنسان - كتاب ضخم طوى الدهر معظم صفحاته.. وبين أيدينا منه الصفحات الأخيرة أو الحديثة..

ولا قيد على حركة الإنسان العلمية في تاريخه وتاريخ الكون.. فكل حركة واعية تزيده علماً، وتزيده إحساساً بالتواضع في محراب الكون.. والكون مسجد كبير، كله آيات تدل على عظمة الخالق وروعة الخلق..

كل هذا ينعكس على نفس الإنسان مزيداً من الإحساس بعظمة الله، ومزيداً من الرغبة في طاعته وحب عبادته والعمل من أجل خيرهم.

وإذا كانت المرحلة الثانية من قصة آدم - وهي حياته في الجنة - محدودة الأهداف والشخص والأوامر والنواهي باعتبارها مدرسة تمهيدية لخلافته في الأرض، كما هو في قدر الله..

فإن حياته في الدنيا هي المدرسة الأوسع والأكثر تعقيداً.. الأفراد القلائل أصبحوا شعوباً وقبائل. اللسان الواحد أصبح ألسنة، اللون تعدد، البيئات التي سكنها الإنسان تمتد على سطح الأرض، بين جبال وسهول، وسواحل ومناطق داخلية، تتباين حراً وبرداً، مطراً وجفافاً، غنى وفقراً..

والاختلاف في هذا كله مظهر لقدرة الله تعالى.. والحياة:

تكاملها في تنوعها، فليس البشر خلايا نحل أو وادي نمل تتكرر صفاتهم وتتشابه أعمالهم، وإن كان في الحيوان والنبات تباين..

بل إن روعة الحياة الإنسانية تتمثل في الجديد الذي يستطيع أن يبدعه في عالمي الأنفس والآفاق، فهو في المادة الصماء روحها.. كما أنه نفخة من روح الله تعالى.

ومع هذا التنوع قامت الدول ونشأت المدن، وقامت بينها علاقات الحرب والسلام. والتعاون والخصام، والعدل والظلم.. ووسط هذا كله نسمع قول الله تعالى:

﴿ فَأَمَّا يَا تِئِنَّكُمْ مِنِّي هُدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٧﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (طه: ١٢٣-١٢٦).

ومن هذا التعميم ننتقل إلى التخصيص المرتبط بسبب النزول. ونعود إلى أصحاب المصطفى ﷺ الذي اتبعوه على الإيمان والبدل. وكان منهم الأغنياء كأبي بكر وعبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان.. ومن هؤلاء من أكل الإسلام ماله، واشترى به من استطاع من المستضعفين والرقيق.. وأعتقهم لوجه الله تعالى.. وكان من الصحابة فقراء..

ورأت مشيخة قريش كيف يجمع مجلس محمد هؤلاء جميعا. زالت الفروق بين الغنى والفقر، والتقى في صف الصلاة من هم في ذؤابة القبائل ومن هم في أطرافها أو مواليتها. ورأوهم في صف الصلاة أخوة في الدين يجمعهم جوهر التوحيد وكرامة الإنسان.. لا يتأفف غنى من ثياب فقير، ولا يضيق به في مجلس ولا تقتحمه عينه..

وقريش هي قريش بأمجادها ومواريتها ومفاخراتها، تدفع عنها بالسيف، فكيف تنزل عنها طوعا أمام كلمة التوحيد؟

وكان عقلية مشيخة قريش في التكبر تحمل لفحة من نار إبليس التي تنطلق ألسنتها قائلة:

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

وهؤلاء المستضعفون المؤمنون: إنهم الامتحان العسير الصامت أمام زهو قريش وخيلائها وأموالها وأنسابها.

ويعقب الإمام الفخر الرازي على الربط بين موقف قريش من المستضعفين، وموقف إبليس من آدم..

((إنما قال للكفار المفتخرين بأنسابهم وأموالهم على فقراء المسلمين.. أفتتخذون إبليس وذريته أولياء من دون الله، لأن الداعي لهم إلى ترك دين محمد ﷺ هو النخوة وإظهار العُجب. فهذا يدل على أن كل من أقدم على عمل أو قول بناء على هذا الداعي فهو متبع لإبليس حتى أن من كان غرضه في إظهار العلم والمناظرة، التفاخر والتكبر والترفع، فهو مقتد بإبليس. وهو مقام صعب غرق فيه أكثر الخلق. فنسأل الله الخلاص منه..

ثم يقول: وإذا جهلتم هذه الحالة (أي خلق أنفسكم وخلق السماوات والأرض) فكيف يمكنكم أن تحكموا لأنفسكم بالرفعة والعلو والكمال، ولغيركم بالدناءة والذل؟ بل ربما صار الأمر في الدنيا والآخرة على العكس فيما حكمتم به (تفسير الفخر الرازي ١١: ١٣٨-١٣٩)

وفى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذُ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ العضد: ما بين المرفق إلى الكتف، والجمع أعضاء. ويستعار للمعين والنصير. يقال عضده أي: قواه وأعانه.

ووصف الله هؤلاء القوم بالمضلين، يدل على أن ضلالهم يتعدى أنفسهم إلى غيرهم، وعلى المؤمنين أن يحذروا هذا الميل عن الطريق.. وصدق الله العظيم في خطاب رسوله والمؤمنين:

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ<sup>ط</sup> وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (الكهف: ٢٨).

### ٣٥- وجعلنا بينهم موبقا

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ  
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا  
عَنْهَا مَصْرَفًا ﴿٥٣﴾ (الكهف: ٥٢، ٥٣).

وتقلنا هذه الآيات مرة أخرى إلى مشاهد الآخرة، بعد أن كنا في ذكر  
الخلق الأول في الآيات السابقة..

وكان الحركة النفسية والفكرية تنتقل بنا مسرعة بين زوايا مثلث: الأولى  
الخلق، والثانية العمل في الدنيا، والثالثة الجزاء الأخروي. ويتم الانتقال في آية أو  
شطر آية.. والإنسان في نقطة وسط المثلث تتجمع في ذهنه وقلبه هذه الإشعاعات،  
فيرى الوجود كله في لمحة.. بدءا وعملا وجزاء..

في هذا اليوم الذي يصدر فيه الناس أشتاتا ليروا أعمالهم.. يخرجون من  
الأحداث كأنهم جراد منتشر، مهطعين إلى الداعي يقول الكافرون هذا يوم  
عسر، يخاطبهم أحكم الحاكمين: ﴿ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ ولا يملكون  
إلا الامتثال، وهو في هذا الموقف عذاب وخزي.. ((فدعوهم)).. ومن يملك الإجابة  
في يوم يرتفع فيه نداء الحق ((لمن الملك اليوم؟)) فتجيب الخلائق جميعا ((للَّهِ  
الواحد القهار)). ولا يملك الأرباب المتألهون والجبابرة إلا الصمت ناكسى رءوسهم  
﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ وما الموبق؟ إنه المهلك أو البرزخ  
البعيد.. فلا تواصل بينهم يوم القيامة كما كانوا في الدنيا، وإنما تباعدوا  
وتقطعت بهم الأسباب.. هذا وجه في تفسير الآية..

وقد يكون الشركاء الذين زعمهم الكفار، أبرياء من ادعاء الألوهية،  
وإنما عبدهم قومهم - أو بعض الناس - على غير رغبة منهم..

ولقد سجل القرآن الكريم كيف عبد بعض الناس الملائكة، أو عبدوا  
أنبياءهم. وفي خواتيم سورة المائدة تقرأ قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۗ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۗ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ۗ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۗ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۗ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(المائدة: ١١٦ - ١١٨).

فالنبيون والملائكة صائرون إلى ما أراد الله لهم من الكرامة والذين كفروا بما أنزل الله من الحق والتوحيد سيجزيهم الله بما عملوا.. وبين الفريقين موبق هذا وجه آخر في تفسير الآية ونقرأ هذا الوجه عند الإمام الفخر الرازي ونقرأ الوجه الأول عند الإمام ابن كثير.

وفى قول الله تعالى ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ رأى فعل ماض والآخرة غيب مستقبل.. كأنه من اليقين بحدوثه قد كان.

﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ والظن هو اليقين كما في قول الله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۗ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة: ٤٥ - ٤٦).

﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا عَنْهَا مَصْرَفًا ﴾ لا طريق يعدل بهم عنها..

ففي الآية ثلاثة صنوف من العذاب متلاحقة:

- الأول: رؤية النار.
- الثاني: اليقين من مواقعتها.. كأنها تقرب منهم وهم يقتربون منها.

• الثالث: لا مهرب.. ولكن طريق واحد يؤدي إليها.. هذا بعد تعددت بهم سبل الأهواء والشهوات والآلهة المعبودة ضاع هذا ولم يبق أمامهم إلا طريق النار.

والصورة مع المؤمنين مختلفة.. بل هي الوجه الآخر لهذه الصورة كأن لهم في الدنيا طريق واحد هو قول الله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۗ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَلْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

لم تتوزعهم الأهواء والشهوات وما تفرقت بهم السبل وفي الآخرة تعددت أمامهم أبواب النعيم وأسبابه يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِعَآئِنَتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٥-١٧).

فلكل مؤمن منهم، ما تقر به عينه، وفوق هذا جميعا رضوان من الله أكبر..

حتى طعامهم، لهم فيه متعة الاختيار: ﴿ وَفَلَكَهَاتِمَا يَتَخَيَّرُونَ ﴾

وفي الفاكهة جمال. ولكل لون وشكل وطعم متعته ولذته.. والشراب أمامهم متنوع..

فالتعدد والتنوع قائم بعد أن استقام الطريق في الدنيا:

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۗ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (يونس: ٢٦).

والقتر القلة في النفقة.. فكأن الله صان هذه الوجوه الطيبة من الضعف المادى والمعنوى من قلة الرزق وقلة التكريم.

ونعود إلى الآية الكريمة: ﴿ وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ونستعيد صنوف العذاب الثلاثة المتلاحقة: رؤية النار. اليقين من مواقعها. أن لا مصرف عنها، لنرى كيف يكافئ الله المؤمنين بثلاثة صنوف من التكريم..

فى مقابل رؤية النار، واليقين من مواقعها نقرأ قول الله تعالى:

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (الحديد: ١٢).

(فهذه تقابل الثانية أي اليقين من مواقعة الكفار النار)

تبقى الثالثة وهى ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ يُقابلها تفتيح أبواب الجنة للمؤمنين:

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٣-٢٤).

فهذه ثلاثة تقابل ثلاثة.. نراها في أكثر من موضع من القرآن، وسنراها فيما نستقبل من آيات سورة الكهف إن شاء الله، وفى خواتيمها ومن بعدها الآية الخاتمة المرتبطة بمدخل السورة وهى توحيد الله تعالى، والاستقامة على ذلك، وحسن المثوبة عليه.

## ٣٦- معجزة القرآن

يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤).

يقول القاضى عبد الجبار بن أحمد(٤١٥) في كتابه ((تنزيه القرآن عن المطاعن (ص٢٣٩) في شرح هذه الآية:

وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ كيف يصح ذلك، وإنما ذكر تعالى فيه بعض الأمثال. وجوابنا أن ذلك مبالغة كقوله تعالى: ((وأوتيت من كل شيء)) (وذلك عن ملكة سبأ). ومذهب العرب في ذلك معروف، والمراد: من كل مثل يحتاج إليه العباد في أمر دينهم. وما هذا حاله موجود في القرآن من صفات الأمور الدنيوية وصفات الآخرة وغيرهما. اهـ

والأمثال التي صرفها الله تعالى في هذا المقام كلها دفاع عن مكانة الفقير والمستضعف، وإعلاء شأن الإيمان والعقيدة، وإعلام لمشركى العرب لما افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم، أن قولهم فاسد، وشبهتهم باطلة.. ذكر الله أمثله مثل آدم وإبليس ومن قبله مثل الرجلين وبينهما صورة الدنيا في زهوها وذبولها وفرحة الحياة بالمال والبنين ولا يبقى من هذا كله إلا العمل الصالح والنية الصالحة والذرية الصالحة.

ألا يستوقف هذا النظر طويلاً؟ حينما نرى الدنيا بعد هذه القرون الطويلة ومن فيها يفرقون البشر بين الذين يملكون والذين لا يملكون وبين الذين يعرفون والذين لا يعرفون ويقسمونها بين الشمال الغنى والجنوب الفقير؟ ألا نراها لا تزال تتعثر نفسياً وفكرياً على طريق المودة والإخاء الذى أقامه المرسلون، وجعله الله لنا في صلاتنا عبادة وفي حياتنا صراطاً وفي الآخرة نورا؟

وصدق الله العظيم ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢) وذلك بإقامة الحجّة عليهم، وإثبات ضلالهم بأكثر من طريق.

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۖ ﴾ ﴿٢٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَتُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ۖ﴾

ما سنة الأولين؟ وما العذاب القبل؟

وما منهج القرآن في الدعوة إلى الله، وكيف يختلف عن سنة الأولين؟

إن القرآن الكريم هو معجزة الله الباقية، بعد عهد النبوات والمعجزات.

ولك أن تنظر إلى ما أيد الله به أنبياءه من الآيات الدالة على نبوتهم، أين هي الآن؟ أين سفينة نوح؟ وأين عصا موسى؟ وأين ناقه صالح؟ وأين الرجل الذي أحياه عيسى والمرضى الذين شفاهم بأمر الله؟ وهب أننا عثرنا على سفينة نوح، فهل كان بناؤها هو المعجز، أم سيرها باسم الله مجراها ومرساها في موج كالجبال.. ولا يمكن أن يعود التاريخ لتصوير هذا المشهد.. ولا المشهد المتمثل في قول الله تعالى:

﴿ وَقِيلَ يَا رَجُلُ إِنَّا غَمَضْنَا الْمَاءَ فَقَضَىٰ الْأَمْرَ ۖ وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود: ٤٤).

كذلك ما حاق بمن كذبوا الرسل، كالحسف والعواصف المدمرة والسيول الجارفة كمثال، نقرأ قول الله تعالى عن قوم هود:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴿٢٥﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأحقاف: ٢٤ - ٢٥).

معجزات الأنبياء قبل الإسلام كانت كونية تأتي فيها الظاهرة تأييدا للنبي، أو عذابا لقومه إذا كذبوه.. وجاء القرآن الكريم يقص ذلك، ويؤكد - تاريخياً - حدوده:

ولكنه في ذات الوقت جاء ليختم عهد المعجزات الكونية، فلم تكن هي آيته الكبرى: تأييداً له أو انتقاماً من المكذبين. وبيّن القرآن هذا بكل وضوح. وأنه جاء يخاطب العقول، بالحجة والبرهان.

وفي نفس السورة التي يؤكد فيها هذا - وهي سورة الكهف - يذكر معجزات كونية مع أنبياء وصالحين وشباب مؤمن ضرب الله على آذانهم في الكهف سنين عددا ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا ﴾ (الكهف: ١٢).

في نفس السورة التي ذكر فيها كل هذا القصص، يأبى القرآن الكريم، إلا أن يحاكم الناس إلى العقل.. بل إنه في سبب نزول السورة، وتحدى كفار قريش الرسول في أمور من العلم، لم ينزل الوحي في الموعد الذي رغب فيه الرسول، وكان هذا خطوة في التكوين النبوي، الذي يمثل لأمر الله، ولا ينبغي له أن يحدد للوحي موعداً..

يتلاقى هذان الأمران معا في سورة الكهف، وتأتي السورة توثيقاً تاريخياً لأمر وتأكيداً للمنهج العقلي الذي يدعو إليه القرآن.

وفي هذا الضوء نعود إلى الآية الكريمة:

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

جاء في معنى قبلا التفسيرات الآتية:

- ١- أنها جمع (قبيل) بمعنى ضروب من العذاب تتواصل مع كونهم أحياء.
- ٢- مقابلة وعيانا
- ٣- قبلا (بفتحتين) أي مستقبلا.

والمعنى (كما يقول الفخر الرازي ١١: ١٤٢) أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا، أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا. وأعلم أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا على هذين الشرطين، لأن العاقل لا يرضى بحصول هذين الأمرين، إلا أن حالهم شبيه بحال من وقف العمل على هذين الشرطين. ثم بين الله تعالى أنه إنما أرسل الرسل مبشرين بالثواب على الطاعة منذرين بالعقاب على المعصية، لكي يؤمنوا طوعا، وبين مع هذه الأحوال أنه يوجد من الكفار المجادلة بالباطل لغرض دحض الحق... وأنهم اتخذوا آيات الله، وهي القرآن وإنذارات الأنبياء هزوا..

ولو عدنا إلى سورة الإسراء، رأينا فيها تصويرا لحوار بين كفار قريش والرسول حول المعجزات الكونية:

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۚ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۚ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا نَقْرًا مِّن قُلِّ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۗ ﴾ (الإسراء: ٩٠-٩٣).

ونقرأ حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام- تأكيدا لمعجزة القرآن، وإنهاء لعهد المعجزات الكونية وإعلاء لشأن العقل، والمنهج العقلي:

((ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)) (رواه مسلم عن أبي هريرة- مختصر صحيح مسلم للمنذرى حديث رقم ١٩ ص ١٣)

ذلك لأن مخاطبة العقل هو الأمر الباقي. ومعجزات الله وآياته تتمثل أمامنا في هذا الكون وفي كتاب الله في كل آن أما المعجزات الكونية المرتبطة بزمان ومكان محددين، فهذه يحصرها المكان، ويطوئها الزمان. ويؤكد القرآن خطاب العقل. فيأمر الله رسوله أن يخاطب قومه به:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ ۖ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُونَ ۚ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ (سبأ: ٤٦ - ٥٠).

أمر آخر نذكره بشأن المعجزة الكونية. وإن نسخ القرآن تجدها كما أكد حدوثها مع النبوات السابقة. فالمعجزة ليست خرقاً لنظام الوجود. وإنما المعجزة قانون ذاتها. إنها قانون أعلى، يحكم قانوناً دونه.. ولكل من القانونين مستواه، دون تعارض بينهما، وإنما تتاسق وحكمة هي من صنع العزيز الحكيم.

وفي سورة الكهف نرى مستويات هذه القوانين في المعرفة. والعلم، وفي التصرف على أساسها، وفي النوم واليقظة وامتدادهما، في العواصف والصواعق حين ترتبط بظلم البشر وتأتي انتقاماً إلهياً، كما نرى كيف ترتبط القوة بالعدل، والقدرة مع ضبط النفس، واستتقاذ الشعوب عن طريق العمل والمشاركة وتأکید العلاقة بين الجهد والنتيجة كما في قصة ذي القرنين..

مستويات متعددة من التصرفات والقوانين، منها ما يقرب إدراكه، ومنها ما يعمق في أسرار الغيب كقصة موسى والخضر.. وكل ما جاء متعمقاً في الغيب أو من قانون أعلى نؤمن به، دون أن نطالب الرسول بإعادة ناموس أذن الله في طيه، ونشر لنا ناموساً هو العقل والتفكير، في كتاب هو حجة العقل والتفكير..

وفي هذا نرى كيف اللقاء الكريم بين الشرع والعقل في الإسلام وتعاونهما في صياغة الحياة السوية.

والآن: تعالى معى نقرأ سطوراً عن العلاقة بين العقل والشرع من كتاب معارج القدس في معرفة مدارج النفس للإمام الغزالي (ص ٦٤).

إعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع. والشرع لم يتبين إلا بالعقل. والعقل كالأس، والشرع كالبناء. ولن يغنى أس ما لم يكن بناء. ولن يثبت بناء ما لم يكن أس.

وأيضاً فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع. ولن يغنى البصر ما لم يكن شعاع من خارج. ولن يغنى الشعاع ما لم يكن بصر. ولهذا قال الله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ﴾ (المائدة: ١٦، ١٥).

وأيضاً: فالعقل كالسراج. والشرع كالزيت الذي يمدده. فما لم يكن زيت لم يحصل السراج. وما لم يكن سراج لم يضيئ الزيت. وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله: ﴿ اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾.

فالشرع عقل من خارج. والعقل شرع من داخل وهما متعاضان بل متحدان. أه نسأل الله أن يكرمنا بنور العقل ونور الشرع لنسير في نور على نور.

### ٣٧- وربك الغفور ذو الرحمة

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ ۗ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى ۗ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَمَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾

بعد أن حكى الله تعالى عن الكفار جدالهم بالباطل، بين في هذه الآيات بعض صفاتهم، وأبرزها اشتان:

الصفة الأولى: الظلم. وهم قد ظلموا أنفسهم ومجتمعهم، وظلموا المؤمنين بالإعراض عن الحق. هذا الحق الذى لا يُنسب إلى بشرٍ أو قبيلٍ من الناس، وإنما هو هداية رب الناس للناس.

نعم، لقد جاء القرآن عربى اللسان، عربى المبعث، ونزل الوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام مسئولية، دون اختيار منه.

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (الحج: ٧٥).

وعرضه على الناس جميعا: ما اختص به بعض قومه، أو بعض أهله.. فهو من أول أمره رسالة عامة شاملة:

﴿ قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(الأعراف: ١٥٨).

فهو ﴿ مبلغ عن ربه. لا يسأل الناس على الحق أجرا.

والله تعالى - الذى اختاره - هو سبحانه الذى أیده بالوحي، وقد عجزوا عن تحديه. وصدق الله العظيم:

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَغَايَتِ اللَّهِ تَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣).

الأمر إذن خرج عن دائرة الحوار العقلى، والفكرى الموضوعى. ودخل دائرة الجحود، التى يستعين فيها كفار قريش بأخبار اليهود، ويشتدون على الرسول وأصحابه إيذاءً بدنياً ونفسياً، ومقاطعة اقتصادية وإرهاباً وعدواناً.

هذا هو الظلم الذى اجترحه كفار قريش: ظلم الحق في ذاته، وظلم الرسول وأصحابه، وظلم أنفسهم وأتباعهم بانصرافهم عن الحق.

ونقض في الآية عند لفظ (آيات ربه) فهذا الظالم لنفسه جاءت الآيات من ربه: ربه الذي خلقه وسواه وعدله. ربه الذي أنشأه في الأرض واستعمره فيها. ربه الذي جعل لهم الحرم الآمن، ورزقهم من الثمرات، وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف..  
 ألا يؤمنون بإبراهيم؟.. ويعيشون في بقية مما ترك؟ وإن خلطوا بها الأوثان وأدخلوا على الحنيفية ما لم يأذن به الله؟ إنهم آثروا الشرك على التوحيد، والظلم على العدل، والظلام على النور.. وتميز في مكة فريقان.. ﴿ هَذَا نِ حَصَمَانِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ (الحج: ١٩).

وفى قول الله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾، لقد فهمنا الإعراض.. فماذا قدمت أيديهم؟ النسيان هنا هو التغافل عما قدمت أيديهم من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة.

أمامهم آيات الله البينات. وأمامهم رمز الشرك والوثنية، آيات الله جاءت من عند الله. ورمز الشرك صنعتها أيديهم، وما أنزل الله بها من سلطان. ثم ادعوا من عند أنفسهم أن هذه الأصنام هي شفعاؤهم عند الله، وأنها تقربهم إلى الله زلفى.. نسوا أنهم هم أنفسهم الذين ابتدعوا هذا كله، ثم عكفوا عليه، ثم دافعوا عنه، ضد ماذا؟ ضد صريح الإيمان والتوحيد الذي جاءهم به الرسول من عند الله مؤيداً بالوحي الذي لا يملكون معارضته.. فالظلم مزدوج تمثل في الإعراض عن الحق، وتجاهل أنهم هم الذين صنعوا الباطل.

الصفة الثانية: تبدو في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ والأكنة جمع كنان وهو الغطاء الذي يكن فيه الشيء.. مثل غطاء وأغطية (مفردات الراغب الأصفهاني ص ٤٥٩).. والوقر الثقل. تقول نخلة موقرة أى ثقل حملها..

وكان هذه الآية هي النتيجة المنتظرة لما جاء في صدر الآية الكريمة:

هم الذين أعرضوا عن آيات الله، وهم الذين صنعوا الشرك ثم عبدوه من دون الله.. ماذا يترتب على ذلك؟ أن تصبح قلوبهم في أغطية من صنع أيديهم، وكان آذانهم ملئت بأثقال.. وهل تتحمل الآذان ثقلاً؟ وتأمل قوله تعالى: ((وفى آذانهم))..

وإذا كانت حروف الجر يحل بعضها محل بعض، إلا أن استخدام ((فى)) هنا يحمل بشاعة ما يحملون.. ولو حولنا هذه الصورة المعنوية إلى صورة حسية لازدادت بشاعة ما صنعوا بأنفسهم.. ولك أن تتصور قلبا، ومن حوله غطاء أصم وآذانا مثقلة بما تحمل.. جزاء بما قدمت أيديهم..

ثم يخاطب الله نبيه قائلا: ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا أَيْدِيًا ﴾

إن تدعهم وهم في إصرارهم على البعد عن آيات الله، والعكوف على أصنامهم ((لن يهتدوا أبدا)) أما إذا حطموا الأكنة التي صنعوها بالشرك حول قلوبهم، وتخلصوا من الوقر الذي يملأ آذانهم، وطهرت مسالك البصر والعظة.. هنا يستطيع الإيمان أن يجد طريقه إلى السمع والبصر والقلب. وصدق الله:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

(ق: ٣٧)

من أجل ذلك تأتي الآية التالية تحمل من الله بشارة ونذيرا:

بشارة: في قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾.

نذيرا: في قوله تعالى: ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ ۗ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْبِلًا ﴾ (والموئل المنجى والملجأ).

والله سبحانه قدم في هذه الآية المغفرة بصيغة المبالغة: الغفور.. فذنوبهم كثيرة. وهم الذين أسرفوا على أنفسهم، ولكن غفران الله ورحمته أوسع.. وإن كفار قريش يعلمون ما حل بالأمم السابقة من العذاب، عندما أعرضوا عن هدى الله: قوم عاد على طريقهم إلى اليمن، وثمود على طريقهم إلى الشام.. أصحاب مدين.. وقوم لوط.

والله تعالى يخاطبهم، ويذكرهم بما يشهدون:

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(الصافات: ١٣٧ - ١٣٨)

ولو أخذ الله قريشا بالعذاب، كما أخذ الأمم السابقة لعجل لهم العذاب.  
﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ ما هذا الموعد؟

يمكن أن يكون يوم ((بدر)) وفيه لقيت قريش هزيمة، هي الأولى في تاريخها أمام نفر من أبنائها الذين هاجروا بإيمانهم مع نفر من الذين آووا ونصروا.. وشهد ميدان بدر قتالهم وأسراهم وجرحاهم وعودة المهزومين.. هذا اليوم الذى وصفه الله تعالى بقوله:

﴿ هَذَا نِ حَصَمَانِ اَحْتَصَمُوا فِي رَيْهَمِ ۗ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾

(الحج: ١٩-٢٠)

ذكر المفسرون أنها نزلت في بدر بعامة، أو نزلت في الذين بارزوا يوم بدر، أو في الذين آمنوا والذين كفروا(تفسير ابن كثير)

ويمكن أن يكون الموعد الجزاء يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ٣٠).

وبالرغم مما ألحقته قريش بالمسلمين في غزوة أحد، إلا أنها لم تستطع أن تحقق الهدفين الرئيسيين من المعركة، وهما: اقتحام المدينة، أو قتل الرسول عليه الصلاة والسلام.

وتوالت محاولاتها، إما وحدها أو متعاونة مع اليهود داخل المدينة وخارجها ومع مشركى العرب، ولكن استطاع الإيمان أن يشق طريقه ويستعيد مكة، ويعم الجزيرة العربية ودخل الناس في دين الله أفواجا..

لقد رأت قريش كيف تحقق وعد الله للمؤمنين أكثر من مرة، ولم يكن أمام هذه القلوب إلا أن تستجيب. ويأبى الله إلا أن يتم نوره.